أسئلة أخرى، تنبثق عنه، كإجابات تجيء على هيئة أسئلة تقذفها الشخصيات الروائية من مواقعها المتعارضة، ومن منظورات متباينة، لتخلق توتراً درامياً متصاعداً يشق مجراه في كلا موقعي الحدث: الصحراء والبيت، وليصل الى نهايته الحتمية التي تحقق بداية تشي بالمسار الذي ينبغي لسؤال البحث عن الهوية أن يخترقه، وهو المسار باتجاه الوطن الذي منه تنبع قدرة الذات على الاختراق والتجاوز، فإذا كان أبطال رواية «رجال في الشمس» يحاولون اختراق «باب جبار لقدر جديد مجهول»[٤]، في الوقت الذي عجزوا عن أن يدقّوا جدران الخزان ـ لأنهم يجرون ضد المسار الصحيح ـ فإن كلاً من «حامد» و«مريم» في «ما تبقى لكم» يخترقان بوابات القدر: الاول «بمزيج من المشاعر التي تملأ قبضتي مغامر شجاع وهما تدقان بوابة «مجهولة»[٥] والثانية «بكل ما في ـ ها ـ من قوة»[٦]، لأنهما يخطوان في المسار الذاهب باتجاه الوطن، والمتداخل معه، وفيه. غير ان هذا المسار الذي ينتهي بقتل حامد للجندي الاسرائيلي الذي يصادفه في صحراء النقب، وبقتل مريم لزكريا «النتن» الذي يطالبها بالتخلص من الجنين الذي حملت به، منه، سفاحاً، ليس غير بداية لتلمس الاجابة عن سؤال الهوية، والاسئلة التي تسكنه، لأن أياً من الفعلين، على الرغم من أنه يهدف في اتجاهات متقاطعة، الى اختراق حائط الضرورات، والى تجاوز الماضي المكبّل، والى الاعتماد على الذات في مواجهة ضراوة العالم، يظلّ، فعلاً فردياً، منطوياً في ذاته على شيء من الاحساس الفردي بالعجز المهيض، وعلى غياب الاستمرارية، وهو ما يترك سؤال الرواية مفتوحاً على امكانيات تطوير الاجابة عنه في سياق البحث عن هوية الذات؛ عن علّة وجودها، عن دورها في العالم، وعن الطريق الذي ينبغي ان يسلكه الفلسطيني في بحثه عن هويته، ومستقبل وجوده.

وتجي رواية «عائد الى حيفا» مواكبة، مثل غيرها من روايات كنفاني، المسار الواقعي للقضية الفلسطينية، ولأسئلة الفلسطيني، في المنفى، عبر وعيه الممكن الذي يستشرفه غسان كنفاني، ويكثّفه، ويفجّره أسئلة تبحث عن أجاباتها التي تفجّر بدورها أسئلة أخرى في رواياته؛ ولقد جاء التوحد الواقعي لفلسطين، حيث أكملت اسرائيل احتلالها، في العام ١٩٦٧، ليدفع غسان كنفاني الى طرح سؤال رواياته المكثّف: سؤال الهوية والطريق، من منظور علاقة الذات الفلسطينية بماضيها في الوطن، ماضيها الذي يسكنها، والذي ترى اليه بوصفه ماضياً قابلاً للاستعادة ليكون مستقبلاً، أو نقطة انطلاق لتواصل العلاقة مع الوطن، بمعزل عن الانقطاع الناجم عن الاحتلال، والاقتلاع، وذلك عبر نوع من الدفاع السيكولوجي، اللاواعي، الذي يحاول تغيّب هذا الواقع المرّ عن الوعي، أو عبر محاولة واعية لدفنه في أعمق أغوار الوعي الباطن، وكبت امكانية انفجاره. وإذ تطرح «عائد الى حيفا» سؤالها، فإنها تنتهي الى ترسّخ القناعة لدى بطلها «سعيد س» البرجوازي الصغير، بأنه وزوجته المسكونة، مثله، بثقل ذاكرة الماضي، قد أخطاءا حين اعتبرا «أن الوطن هو الماضي فقط»[٧]، ذلك لأن «فلسطين الحقيقية. فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة، أكثر من ريشة طاووس، أكثر من ولد...»[٨] وأكثر من «مجرد تفتيش عن شيء تحت غبار الذاكرة»[٩]، لا يقود الاّ الى العثور على غبار جديد، هي فلسطين ـ الوطن، الذي يعرفه خالد، ويرى اليه، «فالوطن عنده هو المستقبل»[١٠] مثلما هو كذلك عند عشرات الالوف من أمثاله الذين «لا تستوقفهم الدموع المفلولة لرجال يبحثون في أغوار هزائمهم عن حطام الدروع وتفل الزهور»[١١]. إن خالداً وأمثاله «يصححون أخطاءنا، وأخطاء العالم كله[١٢]، كما يقول «سعيد س». وإذا كان هذا الاخير قد وقف حائلاً دون تحقيق رغبة ابنه «خالد» في الانخراط في حركة الكفاح المسلح، في بداية الرواية، فإنه، في إثر المواجهة الحامية بينه وبين ابنه «خلدون»[١٣] يكتشف عمق الوهم الذي خلّفه وعاش له وفيه، ويكتشف الخطأ الفادح الذي ارتكبه حين وقف حائلاً